التمثلات الإنسانية.. وأنظمة القيم (في شعر الشريف المرتضى)

الأستاذ الدكتور/ محمد حجازي
كلية الآداب واللغات –جامعة باتنة –الجزائر
د.سمية حسن عليان / قسم اللغة العربية – جامعة أصفهان 2

مدخل:

لقد عاشت الإنسانية منذ فجر التاريخ، أضربا من الوقائع والهزات والمعارف، وتجاذبت نماذج الحياة وزخرفها، من آدم عليه السلام إلى يوم وصول شاعرنا إلى قوة المجد والعطاء؛ حتى حوى بعضها، وحواه بعضها أيضا. وتلك من السنن الكونية التي لا مفر منها.

لقد خلق الله آدم عليه السلام، واستخلفه في الأرض، ليعمر به مفاهيم الكون والزمان، بالرغم من انشطار إبليس عن معروف التبجيل والتعظيم. واختار الغواية عنوانا لذكره وفكره ومساره. وتجلت عظمة الخالق سبحانه وتعالى، في طرده من رحمته والاتجاه به نحو الخسران المبين، يقول تعالى: <<وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ>> سورة: البقرة الآية: 30

لقد انحدرت الإنسانية في غياهب الضلالة والتّيه، وراحت تفسر أبجديات الحياة، حسب الشهوة والعبودية للطين، وتجافت عن حقيقة الخَلق والكون والعبودية للواحد الأحد الفرد الصمد. قال تعالى: <<قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ >>. سورة الإخلاص، الآية: 1-4

غير أن إرادة الخير، كانت تنبعث من أناس لم تستطع الغواية أن تتمكن منهم، ولا من قدراتهم المعرفية الحَقَّة؛ التي هزت أركان الظلم والجبروت، عن طريق الرسالات السماوية التي خص بها المولى تبارك وتعالى أقواما، بإرسال أنبياء ورسل منهم، يدعونهم إلى الوحدانية ونبذ الشرك، والتعالي عن لغة الأنا والتكبر والجبروت... إلى لغة الفهم والمفاهيم، واكتساب الحقائق بالمقصد السوي الذي يتماهى وجوهر الخلق، ومفاتيح العبودية الصادقة الطاهرة.

وحلت رسالة محمد النبي الأمي، الذي أرسل للعالمين بشيرا ونذيرا: <<هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ>> سورة الجمعة – الآية 02

وكانت رسالته الخاتمة رحمة للعالمين، قيمها نبذ الشرك والوثنية، والدعوة لكل ما هو أصيل وقيِّ وخيِّر... وتداعت صروح الشرك صرحا. صرحا... حتى تداعت أركانه في عروش الروم والفرس. وبلاد الحبشة والسند والهند وسائر بلاد خلق الله.

لقد كان لرسالة الإسلام، البعد الذي بعث في الناس الأحقية التي دفعت وتدفع نحو المعالي والطهر والعفاف؛ وبذلك صفت النفوس، وتطهرت القلوب، وشربت العقول من معين الطهر والعفاف... وظهر في المشرق والمغرب، من فهم الرسالة وحوى المعاني والدلالات. وقرأ سير آل البيت الكرام، والصحابة العظام... وانبرى داعيا ومنافحا ومدافعا عن الدين والقيم والتسامح والمحبة، وذلك من نبراس خلق المصطفى عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، يقول تعالى في شأنه: <<فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ>>. سورة آل عمران–الآية 159

لقد كانت المعارف مدونة بالذكر الحكيم: <<إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ>>. سورة الحجر –الآية 09

وجاءت أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، شارحة وموضحة للتنزيل، الذي: <<لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ>>. سورة فصلت – الآية 42

فاغترف علماء أعلام كل تلك المجاميع والمفاهيم الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية والثقافية... حتى برعوا في صناعتها، وتفننوا في إخراجها... وجالوا في حقولها، ونهلوا من كنوزها وأضربها، فجاءت علومهم شارحة وموضحة لهذه الينابيع العقدية، التي فتحت على البشرية بالخير العميم، والفهم السليم. وربطتهم بمعية الدعوة المحمدية الصافية

النقية. فجاءت علوم هؤلاء الأعلام، مفاتيح للعلم والمعرفة، كما هو شأن الشيخ الشريف المرتضى عليه رضوان الله وأنعمه... حيث صال وجال بعلومه ومعارفه في شتى أضرب العلم بين فقه وأصول وفلسفة وفكر ولغة وأدب الخ... ما يمكن أن يُعد من مصابيح التجديد في العصر العباسي، المليء بالتناقضات والعلوم الدينية والفكرية والمنطقية والفلسفية؛ التي أثرت الفكر العالمي وأمدته بمعالم لتحقيق الرفاه المعرفي واليقين البشري المتميز. الذي جاءت به رسالة المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتي انبرى لقيمها ومبادئها وروحها قراءة ودرسا وتدريسا وتعبيرا.

عالمنا المفدى الجليل، بشروحه وتفاسيره، وإبداعاته المتميزة، والتي غطت الكثير من جوانب حياة الإنسان درسا وبلاغة ومعرفة.

- الشعر ومنظومة القيم

منظومة القيم: تُعد الأفكار من ضمن المحاولات الإنسانية، لإيجاد مخارج للاتجاهات والمحاور وأنظمة الحياة... التي يحياها الناس في كل عصر ومصر، وذلك لكون الدروب والمجاهيل والتصورات... تحتاج إلى التدبر والسعي نحو الوصول إلى أيسر الطرق وأسهلها، لتيسير عملية الحياة، وتلك طبيعة يتميز بها البشر عن سائر المخلوقات التي تشاركه الحياة.

وهذا الفعل يأتي وفق تجاذبات الذات الفردية، مع المسعى العام لاتجاهات الذاتية الأخرى. كون هذا التجاذب يحيل دلالات التفاعل مع الآخر، تفاعلا ضمنيا تحيا به الأنفس وتتجاذب مع القيمة العقدية التي تحتلها: "الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل، ليصبح الفرد بذلك جزءا من أسرة أو جماعة أو من أمة أو من الإنسانية كلها، وإذا صدر هذا الدمج عن إيمان وإخلاص وحب، فإن الفرد يحميه حتى وإن اقتضى الأمر تضحية بالروح". (1)

إن القيم ليست مجردة بالمفهوم الفعلي التداولي، لكنها من حيث النظر، هي توليفة تصنعها الأفكار وتقدرها الظروف والاتجاهات المتعددة، التي تكتسبها حياة الناس وتتضمنها أفكارهم ومذاهبهم العقدية أو الأيديولوجية أو السياسية الخ... كون الانتماءات: "تخضع للتفكير العقلي الرشيد، ويتفق هذا مع مفهوم الهوية والتنوع... تنوع الولاءات والانتماءات الخ..." (2)

وهذه المنابر القيمية، هي التي تُفعِّل دور العالم والمثقف والأديب، حين يتجاوز مقادير الفعل الذاتي الخالص، الذي يجعله منطويا على نفسه، لا يسعى لاكتساب المعرفة والتجاوب مع الذوات الأخرى. بالفعل وبغيره... وهذا ما يحتم السعي لولادة الأنا والآخر والتفاعل القيْمي وفق منظومات التأثير والتأثر. لأن القيم: "ذات عناصر ومقومات، وليست طمسا للبنى والتكوينات النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية الخ... لأن الإنسان ينتمي إلى أشياء وعناصر كثيرة، ومقومات فرعية متعاقبة، تصنع الأنا والشعور بالآخر تجاه كل الانتماءات". (3)

لأن منظومة القيم، تسعى في أهدافها إلى تكوين البعد التربوي، الذي يتجاوب مع الأفكار والرؤى والتطلعات التي يسعى الإنسان إلى حصرها في ذاته حينا، ثم الدفع بها إلى الآخرين حينا آخر، كما يفعل العلماء وأهل الفكر والثقافة والأدب والفلسفة... وكذلك الدعاة إلى الله أيضا. وهذا ما يفتح مكامن الذات لتسجيل الأفكار والانطباعات في قوالب معرفية عقلية ومنطقية وشرعية وإبداعية: "حيث تظهر فيها أنفسنا، ونرى انطباعاتنا الخاصة وبصفة مستمرة، مما يمكننا من بناء أنموذج لشخصياتنا، بالتعبير والتعلم والدعوة... وبذلك نحيا في أفعالنا وأفعال مفكرينا". (4)

والأكثر توقعا من هذه الانتماءات المعرفية والثقافية، هي تلك التي يصنفها العقل الناضج، والعاطفة المحبة الساعية لبعث مفاتيح الخير، وأنموذج الصلاح والمعرفة... لأن: "رسالة الإنسان، حب الانفتاح على الثقافات العالمية، ومعرفة المتغيرات، والآفاق الواسعة والمتعددة". (5)

كون التلاقح الفكري والمعرفي يفرض حتمية الممازجة، التي يعرف كنهها العلماء، وأهل الدراية والاستقصاء: "وجوب معرفة وفهم تقاليد مجتمع، وقد ظلوا بينها وبين تقاليد مجتمع آخر وهذه حتمية حياتية". (6)

وهذه هي منطلقات القيم، ومباشرة العلماء لها وفي رغبة صناعتها، لكون العلم هو خبر من الأخبار، ومعرفة من المعارف، والتصرف إزاء هذا المفهوم العام للمعرفة والقيم، تقتضي

فرض مقولة الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: << اعقلوا الخبر إذا سمعتموه، عقل ولاية لا عقل رواية>>. (7)

لكون المفاهيم حين تمتزج بقرائن الباطل وزيغ الحماقة، وهوى أصحاب الأهواء... تذهب في مجاهيل الظلام وغواية الشيطان، وتستبق عروش الحماقات إلى مهاوي الرذيلة والفساد، كما عند بعض أهل العلم الذين انحرفوا به عن جادة الخير والصواب، وفعَّلوه لمعارك التفرقة والفساد، يقول تعالى: <<مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ>>. سورة البقرة –الآية 17

كأن هذا المسعى المهدور، ينطبق عليه قول الشاعر أفنون التغلبي (ت 57 ق. ه)، حين يتحدث عن العطاء الذي لا يأتي عن مصداقية وذوق ومعرفة، يقول:

أم كيف ما تُعطي العَلوقَ بهِ
رئمانَ أنَفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَن (8)

ونتيجة ذلك، حين لا تتوازن المعرفة مع الأهداف، أن يظهر في سياقات القيم التي يسعى لها أهل الثقافة، ممن انقطعت بهم مسالك اليقين والحق، أن يتوفر فيهم قول الشاعر الحارث بن حلزة:

واعلموا أننا وإياكُم في
ما اشترطنا يومَ اختلفنا سواءُ (9)

يجب القول على أن القيم، لا يهتدي لها إلا العلماء والراسخون في العلم؛ ثم يبثونها في أوساط الناس دعوة وخيرا...

– رسالية الشعر:

وفي الاتجاه المعرفي المتكامل، فيما يحرص عليه أهل العلم والمعرفة، والذين لهم من الدراية والسبق وموهبة الإبداع الشيء الكثير، الذي أثروا به منظومة المعرفة، وقوامة المجتمع في تفكيره ومعارفه وسلوكه... دور الشعراء، الذي كان وما يزال يمتاز بالسبق والإصرار، وتحقيق البلاغ للناس. إفهاما وتوضيحا ورسالة؛ وذلك هو عين ما جاءت به الرسالة المحمدية، التي حولت الشعر من أنموذج المداعبات والفجوج السحيقة، والمساوئ المنزلقة وأعذبه أكذبه... إلى دور رسالي فعال، يتماوج مع منظومة الحياة الإنسانية الحقة، التي تحمل رسالة القيم، وصور الحياة السوية المنطلقة في آفاق المناجاة والتصوير المعبر والإبداع الخلاق، الذي يتدفق إخلاصا وخلقا ومرحا أيضا: "مهمة الشاعر، إنجاز القصيدة... وهنا تتوسع دائرة القصد وجمالية الأثر، والواقع الذي تحدثه القصيدة الرسالية في المتلقي... وما يحدث ذلك من أثر". (10)

والرسالة الشعرية لها امتداد من حسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة (رضوان الله عليهم)، الذين كانوا ينافحون ويدافعون عن رسالة الإسلام، ووقفوا موقف البطولة في وجه معسكر الشرك؛ الذي كان أتباعه ينطبق عليهم قول الله تعالى: <<يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ>>. سورة الصف – الآية 08

ولكون هذا الرعيل الأول من أهل رسالة الحق، كانوا يحملون قدسية الكلمة والدعوة إلى الله، كان شاعرنا المفدى الشريف الرضي من سلالة هذه الكوكبة، التي هضمت دلائل الرسالة المحمدية، وعرفت عظمة النبي الكريم (عليه وعلى آله وأصحابه أزكى التسليم)، الذي جاء برسالة السلام والإنسانية للبشرية جمعاء؛ لا فرق بين أبيضهم وأسودهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ولكون الشعر رسالة عاشت الإنسانية في كل أطوارها، فهو: "بينة نابضة بالحياة... تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته لتكون مزيجا مترابطا متداخلا، يجمع بين البصيرة وموضوعات الحياة..." (11)

ولذلك حين شق العلماء طريقهم نحو التأصيل والمتابعة والدعوة، راحوا يجمعون أضرب الثقافة وعناصر المعرفة واتجاهات العلم، وموارد الإبداع والأنس والمؤانسة، ومواطن الخير والسؤدد ليحققوا هدف الرسالة الذي بحثوا ويبحثون عنه، من أجل الإخلاص والمواساة والحب والأخوة والوحدة.

لقد تعالقت مسائل العلماء مع فنون القول وأضربه، لما لذلك من تأثير على العواطف والنفوس؛ لكون الكلمة القيمة الصادقة... صدقة.

بكون القصيدة بتبعاتها الفنية، تتناول كل أضرب الحياة ومشقات الإنسان، وأنهج المعرفة العقدية والسلوكية لديه، لكونها: "قصيدة تتناول كل الأغراض، وتفصح عن كل الحالات". (12)

لأن القصيدة الشعرية وهي تؤدي هذه الأدوار، وتتكامل فيها هذه المهام، هي قوة من المعاني والدلالات والتراكيب التي تتناسب مع الذوق والفعل الإنساني، إذ تؤثر فيه: "وتخدم فيه بناء يتركب من العناصر والقوى التي تتفق على نحو يتم فيه تكامل المعاني الشعرية المتبلورة في حقائق لغوية". (13)

ومن أجل هذا التكامل اللغوي والمعرفي، برع العديد من شعرائنا الذين هضموا مجالات اللغة، وتوسعوا في مدارك العقيدة، ونهلوا من ينابيع الرسالة المحمدية، فجاءت أشعارهم نُبلا وطُهرا، لكونها تحمل نفحات رسالة السماء، وتشريع القرآن الكريم وسنة المصطفى الأكرم عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ومن هؤلاء الذين تشربوا من هذه الرسالة، وهذا المُعطى المحمود المُبهر... شاعرنا الشيخ المرتضى، الذي صال وجال بأشعاره في كل مناحي الحياة ودروب المعرفة... محققا غرض الهدف الرسالي العميق الموحد، وهدف المتعة الفنية ذات الدلالات الجمالية، التي حملت تصورات حول الإنسان في مقامات الاعتقاد والسلم والسلام والأخوة... وكل ما من شأنه إبراز الأدوار العلمية النفعية، التي حملتها توجيهات ومقامات العقيدة السمحة، التي جاءت من خير الأنام رحمة مهداة (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)، وأخلاقا في مقام الإنسان وصفوة اصطفافه على سائر الخلق أجمعين: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

إنما كانت تلك رسالة شاعرنا، في منظومة القيم وأهداف الفعل الإبداعي المتميز، الذي ساقه لنا في نظرة شمولية تجاوزت الأنا ومفاتيح الذات، إلى الآخر والنهوض بأفكاره وموازين حياته، حتى تتفاعل الإنسانية في منظومة القيم الدالة والهادفة.

- التمثلات الإنسانية في ثقافته:

تسعى المنظومة الشعرية في أساس بواكيرها، إلى التعبير عن تطلعات الإنسان في شتى مجالات الحياة شخصية وذاتية كانت. أم اجتماعية وسياسية وثقافية... تعلقت بالآخر، في مستويات تكوينه أو اعتقاده أو نمط صيرورته العقدية والأيديولوجية، إلى آخر ما يمكن أن يمُس حياة الإنسان في شتى مواطن الجغرافيا والمعرفة والعلم الخ... لأن الشاعر عليه: "أن ينظر في حال المخاطبين والممدوحين... ويُغيِّر ما يتطيرون منه، ويكرهون سماعه، ويتجنب ذكره... لأن مراعاة مقتضى الحال... من ضوابط العملية الشعرية، بالخصوص إذا كانت هادفة ومتميزة". (14)

لكون القصيدة الشعرية، هي ذلك الإيقاع المتراص، الذي يحمل دلالات المعارف المتعددة، وهي تنسيق دال على الوحدة الموضوعية والفنية، في اشتباه دال ومتميز لأن أحسن الشعر: "ما ينتظم القول انتظاما... ويجب أن تراعي الدقة والمعاني والصواب، حتى تأتي في نسج متراص محكم دال". (15)

وهذا النسق سار فيه الشاعر المرتضى، وأحكم مفاتيحه بدراية كاملة تمكن بواسطتها من الولوج في عالم الإنسان، وما يعتريه من مشكلات وقضايا ونوازع ودوافع... إلى ما يمكن تسميته، التوجيه التربوي المحكم بالحكمة الموزونة والمقفاة؛ وفق نسق العروض الخليلي الذي تتبع الكلمة الشعرية وأحكم أوزانها، وضبط قوافيها، وجعل الترنيمة الإيقاعية المؤثرة والحاملة لكل دواعي ومقتضيات القصيدة، وقصد الشاعر وهو يدير معركة الكلمة الإبداعية الجذابة والمحكمة، تسير في اتجاه خدمة الأفكار والمشاعر والأهداف.

لقد قال عنه السيوطي: "إن المرتضى توحد في علوم كثيرة، فجمع على فضله مثل الكلام والفقه وأصول الفقه والأدب والنحو والشعر ومعانيه واللغة وغير ذلك...".

وذكر عنه صاحب عيار الشعر أنه: " كان يعتد بأنه ينظم أشعارا محكمة الصياغة، وخالية من الهلهلة". (16)

ولكونه يستحسن الشعر، فهو يعتمد: "الجزالة في الألفاظ ويؤثر ارتباطها، ارتباطا محكما، يجعل القصيدة نسيجا واحدا، كما يفضل المعاني الجديدة المعبرة عن غرض صاحبها أو قصده..." (17)

والإبداع الشعري عنده: "ينبثق عن الطبع والبديهة، وهذا ما نص عليه النقاد العرب القدماء، حيث قال القاضي الجرجاني: (وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر، والخطيب أبلغ من الخطيب، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء، وحدة القريحة والفطنة". (18)

- أنظمة القيم في شعره:

يُعد شعره تجربة للحياة، يتضمن حكما وتوجيهات للإنسان؛ مهما كانت ميوله ونزعاته وأفكاره... كونه يسعى لتوسيع دائرة المعرفة والاتجاه إلى النجاح في قوالب الدنيا، وقواعد الحياة، يقول في واحدة من أشعاره:

نخاف من الأعداء بقيا فربما
كفيت فلم تجرح بناب ولا ظفـــر
ولا تبر منهم كل عود تخافه
فإن الأعادي ينبتون من الدمر (19)

هذه النصائح والحكم، من مدلولات البصيرة الثاقبة لدى الشاعر، الذي أحكم فهم الحياة، وأتقن صناعتها والخوض في دروبها ومسالكها؛ ولذلك راح يقول في نص شعري آخر يبين قدرته على تحمل الصدمات، ونكبات الدهر والزمان وكيفية التصدي للفواجع، حتى وإن كانت في أقرب الأقربين... ويحس القارئ لهذه الأشعار؛ كأنه يستخلص العبر والدروس للكيفيات التي يتصدى بها الإنسان وفي إحكام، للنوازل والخوارق والفوارق...

رمى الدمر بي في فم النائبات
كأني في مقلتيه قـــــــــذى
ولم يدر أني حتف الحتوف
وأرديت بالسيف عمر الردى
وقلب نبا عنه كيد الزمان
فما للمنى في رباه خطا
إذا نازعتني خطوب الزمان
ملأت بهـ فروجات الملا (20)

ويتمكن الشاعر المرتضى من بُعد القيمة التفاضلية في التضحية والصبر، حين يعطي المثل والدلالة بالشهيد الحسين (رضي الله عنه وأرضاه)، ويتمثله في جنان الخلد... ويقدم نموذج الغدر والهزيمة والفجور في قاتليه، الذين سينحدرون إلى جهنم وبئس المصير، يقول:

فيا أنجما يهدي إلى اللهـ نورها
وإن حال عنها بالغبي غباء
فإن يك قوم وصلة لجهنم
فأنتم إلى خلد الجنان رشاء (21)

فالمقوم الدلالي في هذا المقطع الشعري، يحمل قيمة التضحية والفداء من أجل الحق وأتباعه، بينما قيمة النذالة والصفاقة تظهر في الفريق الثاني، الذي ساهم في ضياع الأمة وتمزيق أعمدة الحق، كونهم جاءوا من أجل إكمال مسيرة خاتم المرسلين بالحق والبيان المبين، والتضحية التي تُعد معلما من معالم البشرى واليقين، لكل من يدافع عن الحق ويسعى من أجله.

إن القيم في رأي الشاعر يصنعها أمثال هؤلاء الأبطال، الذين يدافعون وينافحون عن الحق وأهله... دون أن يضعوا للدنيا أي اعتبار أو قيمة؛ غير قيمة الحق والصدق مع الله ومع الرسالة المحمدية.

ولذلك يقول في هذا المضمار، وقد تحقق للإنسان في مسعاه قيمة التضحية:

ومن السعادة أن تموت وقد مضى
من قبلك الحساد والأعداء
فبقاء من حرم المراد فناؤه
وفناء من بلغ المراد بقاء
والناس مختلفون في أحوالهم
ومم إذا جاء الردى أكفاء (22)

وكأنه يعلم الناس، كيفية صناعة المجد والسؤدد، ويؤكد من خلال معرفته لقواعد الشرع، وسلوكات الحياة في أظهرها مع الناس، أن السعادة لمن يريدها. لها مقاييس وأسس وأصول؛ ومن أرادها: فليتفان من أجل الخير والتضحية بالنفس والنفيس حتى يتحقق المراد والمقصد.

ولذلك قدم قيمة البقاء والفناء، كعبرة واعتبار للإنسان... حتى لا يغتر في مسعاه الدنيوي، ويتكالب على الحياة. وينسى أنه استخلف في الأرض من أجل الخير والإعمار، وأن الرجاء والأمل هما صنوان لمن يريد صناعة مجد الحياة، والفوز بالنعيم في الآخرة، يقول:

ما نحن إلا للفناء
وإن طمعنا في البقاء
نعطي ويسلبنا الذي
أعطى التمتع بالعطاء

حتى يقول:

والناس فينا كلهم
ما بين يأس ورجاء
أين الذين سقتهم
الأيام كاسات الرخاء (23)

وهذه النظرة التي امتزجت فيها الواقعية والحقيقة بالأمل والخيال، إنما هي ضرب من مواصفات صناعة المعرفة بالحياة، واليقين بالفناء والخلود.

وكأنه يقدم ضمنا أنظمة قيم للإنسان في مسعاه الدنيوي، وتجاذباته الأخروية التي تنتظره بالمصير المحتوم له... فإن عمل صالحا فذلك له، وإن عمل سيئا فذلك عليه... إنها دلالة الفعل ورد الفعل.

ولذلك راح يرسخ قيمة المعرفة بالحياة، وتداعيات الإنسان إزاء ذلك، وكأنه يفتح الباب واسعا أمام الإنسان لكي ينهض بما يجب عليه القيام به؛ شأنه في ذلك شأن من استرشد بالمقوم الخلقي، حتى يصل بر النجاة ويكسب المراد. وذلك لا يتحقق إلا بالعمل، وبالعمل وحده كما يؤكد شاعرنا:

احذر الدهر فللدهر إزورار وانقلاب
ودع الحرص لقوم حرموا الرشد وخابوا
ما إلى الذل سوى الحرص على الأموال باب (24)

وهذا يعطي للإنسان دلالة القيمة فيما يجتهد الحصول عليه، حيث يبين الشاعر القدر الذي يجب أن يتحرك فيه، وإلا ما وصل إلى الرشد ولا إلى العظمة والتمكين.

لذلك نظر إلى الدهر على أنه زلات وعيوب ومحن وإحن، وأوصى عموم الناس أن يحرصوا على فهم هذه الحقائق، ويدركوا معاني القيم الإيجابية والسلبية التي تصنعها، يقول:

ولولا النوى ما كان للدهر زلة
ولا الليالي الماضيات عيوب (25)

ثم بعدها يحرك قيمة الفناء، وينظر إليها بإيجابية الحياة الأخرى، حيث يسعد المؤمن بما أعده الله له، ويشقى الكافر والمنافق بما ينتظره من العذاب المقيم، يقول:

كل شيء أنشأته تربة الأرض تراب
و إذا فزنا بصدق من غنى فهو كذاب
واطلب العزَّ فما دون مدى العزِّ حجاب (26)

ثم يقدم قيمة الصبر كنموذج مفتاحي لكل أزمات الإنسان، ويعدد الرزايا التي يمكن أن تصيب البشر في مكمن؛ لكنه حين يحقق الاحتساب والصبر، فإنه مهما كانت النتائج فهو الفائز. لكونه فهم هذا المقصد وارتضاه. على العكس من أولئك الذين لا يفقهون سر هذا التميز، وبطبيعة الدنيا فهم كما يقول الشاعر ينهزمون ويخسرون يقول:

إذا لم تستطع للرزء دفعا
فصبرا للرزية واحتسابا
فما نال المنى في العيش إلا
غبي القوم أو فطن تغابى
هي الدنيا تغربها خدوعا
ونوردها على ظمأ سرابا (27)

كقوله أيضا، وهو ينظر إلى القيم تتهاوى في نفوس الناس، ويحذر بفضل علمه ومعرفته بالدنيا من ذلك، ويرى أن التمسك بالمكرُمات من فضائل الأخلاق وطباع الناس... ولا يمكن لعاقل أن يحتقر شيئا ولو كان هينا... لكون كل مخلوق ميسر لما خلق له، يقول:

مالي أرى المكرمات عاطلة
والفضل خِلو الفناء مجتنبا
تفرق دائم فإن عرضت
دنية طير نحوها عصبا
هل لي في الدهر من أخي ثقة
يحتقر الحادثات والنوبا (28)

والشاعر أحيانا يجعل من قضاياه الخاصة، أحزمة دافعة للاتجاه من الأنا للآخر، حين يصب قوالب القيم في مساحات للتأمل والواقعية، فيُذكِّر الإنسان من خلاله، أن الحياة صرف وبصيرة، وكل غادر فيها أو معيب... إنما هو مجانب للصواب والواقع، يقول:

عجبت من الأيام كيف تروعني
ومن عزماتي تستمد النوائب
وكيف ارتجت عندي بلوغ إرادة
وما مال مني في الغواية جانب
لقد عونت صرف الليالي بصيرتي
وآنس شيء بالفؤاد المصائب
ورب حسود يزدريني بقلبه
إذا رام نطقا أخرسته المناقب
وفارقت أخلاق الزمان وأملها
فقد عجبت أن لم تنلني المعايب (29)

فكأن نظام القيم، يفترش ورودا وأحزمة من المتاعب (الصعاب)، حُقَّ للإنسان أن يشرئب منها ويحسن تحملها والوثوب إزاءها، لكونها فاتحة الدنيا بالدنيا، وفاتحة الآخرة بعمل الدنيا.

إن شعر شاعرنا يفوح عطرا بمداد الحياة، وينهض نبضا بتباريح السمو والتفاني والإخلاص، كون القيم إن ثبتت كانت قوامة الإنسان في صناعة المجد والحياة، لذلك جاءت في شعره هذه المعاني السامية، التي رسخت المحبة والصدق، حيث يقول:

إذا المرء لم تستصحب الحزم نفسه
أقامت سجاياه على نفسه إلبا
وليس ينال المجد إلا ابن همة
أبت أن يكون الصعب في نفسه صعبا (30)

إن القيم وصناعتها، إنما تبدأ أساسا من الأنا، وتختزل المسافات لتصل إلى الآخر، كون هذه القيم هي المفاتيح التي يتكئ عليها أهل الدراية والعلم والمعرفة، حتى يتم وصولها إلى الناس ليطلعوا ويتفقهوا ويعرفوا... ومن ثم تتحول عندهم المفاهيم والأفكار والأقوال، إلى أفعال تنهض بحق عقيدتهم في الإخلاص لها والعمل بها، ثم بسلوكاتهم التي تتحرك وفق هذه المعاني الخلقية، التي أجهدت النفس في الحرص على تطبيقها، وأحكمت العقل في التماثل لأبجدياتها وحقائقها. لذلك قال في قصيدة من قصائده، يتمثل هذا التركيب المعرفي، ويضفيه على أقرب الناس إليه، حيث يريد الكل ويذهب إليه بالجزء، وهذا من مناقب الشاعر الفحل، يقول:

ألا هل لما فات من مطلب
وهل عن ردى المرء من مهرب
وهل لامرئ ليبتغيه من
مستجار ومن مذهب (31)

ويقدم قيمة الفكر على أنه الوثبة التي تصنع عالم الإنسان، وهو يبحر في دياجير الحياة، ويعلل ذلك بسمو الرفعة عند الإنسان، وبسمك القوة العقلية التي تحميه من العلل والزلات، يقول منبها الإنسان إلى مثل هذه القيمة الدلالية الجمَّة:

دع الفكر إلا في الحمام ولا تقم
مع الحرص في دار الظنون الكواذب
و إن كنت يوما بالحديث معللا
سمعي فحدثني حديث النوائب
فلي شغل عمَّن أقام بمن مضى
وعن معجبة رقنا بالعجائب (32)

تلك سمة عامة طبعت شعر الشاعر المرتضى، وأفرزت قيما دلالية ذات مكمن للأنا وللآخر، وأضحت تلك الأفكار التي بثها في شعره مستمدة من الحقول المعرفية التي رضعها الشاعر وتربى عليها، كون العقيدة المحمدية السمحة، هي التي ركزت فيه تلك الموائد المزدانة بأصانيف وملذات الحياة... التي غذى بها كل إنسان متشوف متشوق للمعرفة ومحب للخير والصلاح؛ حتى أن تلك المعاني المبثوثة في شعره، كانت وقادة رائدة في عالم الفكر الإنساني، وخلاصة وضاءة في مقامه وفكره وعقيدته وعلومه... وبذلك تحققت لديه مفاتيح الشعر الإنساني المتميز.

- خاتمة المطاف:

يمكن إجمالا الحديث عن شعر ملتزم رسالي، تواصل مع الإنسان في مختلف أضرب حياته، حكمة ودراية وعلما وشرعا ومعرفة... كون شاعرنا الشريف الرضي، من فطاحل المعرفة الشرعية من جهة، والمعرفة العلمية الدنيوية من جهة أخرى... وبالتالي جمع بين الحسنيين. فجاءت أشعاره في قمة الدراية والمعرفة والاكتساب، وكانت بوادر معرفته لا تتوقف في محيط نشأته وعصره فقط، ولا في مذهبه أو عقيدته -تلك خاصيته- وإنما تعدت إلى الآفاق الرحبة الواسعة التي حثت الإنسان على الصلاح والفلاح وأكسبته نموذج التواصل مع الماضي، وصناعة الحاضر واستشراف المستقبل؛ الذي يؤهل كل بوادر المعرفة والعلم قصد الحصول على المكتسبات الحياتية الدنيوية، والفوز بالأجر والثواب في الدار الأخرى (دار البقاء).

وبذلك جاءت أشعاره دررا من المتعة من ناحية، وجواهر قصدية نفعية إبداعية متميزة من ناحية أخرى. فكان شعره بذلك مقصدا للباحثين وللقراء في كل زمان ومكان، حسب الأهمية والحاجة والمعرفة.

الهوامـــش

1- سعيد مراد - زكي نجيب محمود - آراء وأفكار - عين للدراسات والبحوث - القامرة - ط 1997 - ص 26

2- بتصرف/ محمد الجومري -العولمة والهوية (رؤية أنثروبولوجية) – المجلس الأعلى للثقافة – القامرة – ط 1998 – ص 655

3- بتصرف/ محمد الجومري – العولمة والهوية (مرجع سابق) – ص 654

4- بتصرف/ مجدي عزيز إبراميم – المنهج التربوي العالمي – مكتبة الأنجلو المصرية – ط 2001 – ص 24

5- بتصرف/ مجدي عزيز إبراميم – المنهج التربوي العالمي (مرجع سابق) – ص 23

6- د. رزاق الطيار – معاني الحروف الثنائية والثلاثية بين القرآن الكريم ودواوين شعراء المعلقات السبع – مؤسسة دار الصادق الثقافية – دار الرضوان العراق – ط 1 – 1433هـ-2012م – ص 63

7- د. عبد السلام المسدي- فضاء التأويل – كتاب دبي الثقافية– ص 51

8- جمال الدين بن هشام الأنصاري – معنى اللبيب – تح/ د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله –دار الفكر بيروت – ط 5 – 1979م – ص 67

9- ديوان الحارث بن حلزة – تح/ هاشم الطعان – مطبعة الإرشاد بغداد – ط 1969م – ص 13

10-حاتم الصكر– النثر والشعرية العربية الجديدة – مجلة فصول – مج 15 – العدد الثاني – 1996 – ص 76

11-د. شوقي ضيف – في النقد الأدبي –دار المعارف القامرة – ط 1977 – ص 153

12-بتصرف/ د. جودت فخر الدين – شكل القصيدة العربية – دار الآداب بيروت – ط 1 – 1984 – ص 27

13-د. لطفي عبد البديع -التكامل في القصيدة العربي – دار المعارف القامرة – ط 1962 – ص 169

14-النواجي - مقدمة في صناعة النظم والنثر – تح/ محمد بن عبد الكريم – دار مكتبة الحياة بيروت – ص 31

15-بتصرف/ ابن طباطبا- عيار الشعر – تح/ محمد زغلول سلام – منشأة المعارف مصر – ط 1984 – ص 167

16-ابن طباطبا- عيار الشعر – ص 43

17-د. وليد محمود خالص – المباحث النقدية في أمالي المرتضى – ص 111

18-الوساطة بين المتنبي وخصومه – ص 17

19-الديوان – ص 02

20-ديوان الشريف المرتضى – تح/ رشيد الصفار – مراجعة/ د. مصطفى جواد – قدم له الفقيه الأديب/ الشيخ محمد رضا الشبيبي– المؤسسة الإسلامية للنشر بيروت – ط 1987م – جـ 1 – ص 152

21-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 159

22-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 159

23-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 159

24-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 186

25-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 173

26-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 186

27-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 211

28-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 201

29-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 201

30-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 207

31-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 234

32-الديوان (مصدر سابق) – جـ 1 – ص 234